الإسلاميات

توفيق الحكيم

دار المحرر الأدبي

obeikandl.com

توفيق الحكيم
بين الأدب والفن
للأستاذ دريني خشبة

لا فرق مطلقاً بين أن تقرأ توفيق الحكيم وبين أن تقف في متحف للفنون الرفيعة، أو أن تسمع إلى قطعة موسيقية، أو أن تجلس هادئاً ساكناً في مسرح عظيم تشهد مأساة تشجيك أو ملهاة تسليك. . .

تقرأ توفيق الحكيم فتنظر إلى التماثيل الرائعة تتحرك وتتكلم وتنظر وتبتسم وتمتلئ بالحياة وتفيض بالجمال. . ثم ترى إلى الصورة التي انسجمت ألوانها وأحكمت خطوطها وأبدع فيها توزيع المنظر، وأكسبتها (اللمسات) الأخيرة سر المصور، وجرت في أركانها بعبقريته. . . فإذا أفقت من ذلك سمعت (أزاميل) المثالين ومطارقهم تدق. . . كأنها تشترك في تأليف لحن موسيقي. . . فإذا

أدرت عينيك شهدت أبهاء المتحف وردهاته قد امتلأت بالدمى والتماثيل والصور. . .

ومن الظريف اللطيف في متحف توفيق الحكيم أنك ترى به التمثال الكامل والتمثال النصفي. . . كما ترى فيه حطاماً من تماثيل لم ترقه فأهوى عليها بمنحته ومطرقته فجعلها هشيما، ثم عزت عليه فلم يلق بها خارج المتحف، بل تركها فيه. . . لأنها وإن فقدت ذراعاً أو ذراعين، أو نقصت ساق أو ساقين، فأنها تمثل في ذهنه فكرة مقدسة. . . الفكرة التي أوحت إليه (مشروع) التمثال، ولهذا تحتفظ المتاحف بالتماثيل المهشمة!

وقل مثل هذا في صور الرسام الفنان توفيق الحكيم، فإلى جانب الصور الكاملة البارعة، التي أخذت حظها الموفور من حسن التوزيع والعدل بين الألوان، ترى صوراً لم يتقن (طبخ) ألوانها حسب الأصول الفنية، ومع هذا

فقد احتفظ بها في المتحف كما احتفظ بتماثيله المهشمة للسبب الذي أسلفنا.

أما موسيقى توفيق الحكيم فهي من هذا النوع الصامت الذي يخامر القلب ويجري مع الدم ويرهف الأعصاب. . وقد تكون موسيقاه (زائطة) أحياناً، وهي لا تكون (زائظة) إلا إذا أفاق من سكرة الأدب والفكر والفن، واستسلم إلى هذا الإله الطفل المعربد (أمور!) أو (كيوبيد) ذي الجناحين والكنانتين، يصيبه منها بسهم ذهبي فيخفق فؤاده بحب إيما؛ يريشه بسهم (رصاصي!) فيلعن جميع بنات حواء! عند ذلك تأتي موسيقاه (زائطة) أو (نشازاً)، ويكاد الإنسان يفضل عليها موسيقى (المزمار البلدي!)

ترى. . لو أن الأستاذ الحكيم كان قد فرغ إلى فنون التصوير والنحت والموسيقى كما فرغ اليوم إلى (فن الأدب) فأي ثروة كان يستطيع أن يمد بها هذه الفنون النائمة اليوم في مصر، وأي حياة كان يشيعها فيها؟

لقد نشأ الحكيم ذوقه الأدبي في أبهاء متحف اللوفر بفرنسا، ولا داعي مطلقاً لأن نكتب ما كتبه هو عن ذلك في (زهرة العمر) ذلك المفتاح السحري الذي يسلك بك إلى جنة توفيق الحكيم، وإلى جحيمه أيضاً. . . فاسمع إليه يقول لصديقه أندريه، أو يدعي أنه يقول له، وذلك بعد أن أخبره أنه ذهب إلى اللوفر كعادته، وأنه ينفق اليوم بطوله هناك، وأنه يخصص يوماً كاملاً لكل قاعة من قاعاته، لأنه ليس سائحاً متعجلاً. . . (إني أبحث أمام كل لوحة عن سر اختيار هذه الألوان دون تلك، وعن مواطن برودتها وحرارتها، وعن رسم أشخاصها وبروز أخلاقهم واتساق جموعهم وحركتهم وسكونهم؛ كل لوحة في الحقيقة ليست إلا قصة تمثيلية داخل إطار، لا داخل مسرح، تقوم فيه الألوان مقام الحوار. إني لأكاد أصغي إلى أحاديث الأبطال وهم على الموائد في أفراح (قانا) لوحة (فيرونيز)، وأكاد أسمع ضجيج الحاضرين

وصياح الشاربين ورنين الكؤوس وخرير النبيذ يفرغونه من دن إلى دن. إن طريقة إبراز كل هذه الحياة بالريشة لقريب من طريقة إبرازها بالقلم. إن أساس العمل واحد فيهما. . . الملاحظة والإحساس ثم التعبير بالرسم والتلوين، بل إن الروح أحياناً ليتشابه. لطالما وقفت عيناي طويلاً على صفحات ناثر أو شاعر، وأنا كالمأخوذ، أفحص السطور بيدي لأتبين إن كانت من مداد أو من أثير. . .)

وهذا تعبير صادق عن طريقة توفيق الحكيم التي يتناول بها قطعه الأدبية الرفيعة. إنه يصنع بها ما يصنع المثال أو المصور، يتناولها من كل جانب، وينظر إليها من جميع نواحيها، فإذا لم ترقه بعد ذلك كله، سهل عليه أن يمزقها: ففي أكثر من موضع من كتابه يحدثك عن القصص الحوارية التي أتمها ثم لم تعجبه فمزقها. . . كما يحدثك عن هذه الاختبارات التي كان يجريها على

بعض تلك القصص، بإعطائها بعض الأدباء الفرنسيين ليروا رأيهم فيها، ومن هؤلاء هذا المسيو (هاب) الذي كان يعذب الحكيم دائماً بهذه القولة:

(نعم. . . نعم. . . لديك موهبة الحوار. . . ولكن. . . !) وكانت. . . لكن. . . هذه تعصف بنفسه كما تعصف يد الطفل بعنق الكتكوت!. . . وقد قالها ناقد آخر غير المسيو هاب بعد أن قرأ قصة أبلغها الحكيم إلى خمسمائة صفحة، حيث قال: (أفكار كثيرة وموهبة في الحوار. . . لكن. . . !) فما كان من صاحبنا إلا أن مزق هذه القصة أيضاً!

هكذا كان الحكيم ينشئ فنه وأدبه. . . وكان له أستاذ في الفن، هو رجل فقير كان يقنع منه بأجر تافه لا يعدو الأكل والشرب (من أوسط ما يطعم هو ويشرب!) على أن يصحبه إلى المتاحف والميادين والمتنزهات، حيث يشرح له دقائق الفن ويبصره بأسراره، . . . وهنا تتحشرج

الكلمات في صدر قلمي . . . لقد قتل الحكيم أستاذه هذا بعد أن استغنى عنه . . . لقد جاءه الرجل في ليلة عاصفة شديدة البرد وهو يرتجف . . . ويطلب دثاراً يقيه القر . . (فلم أرد عليه بكلمة . . . ولكني أخرجت له ورقة مالية صغيرة وضعتها في كفه كأنه شحاذ، فرفع الشيخ قبعته شكراً وانصرف صامتاً . . . !) وإذا أحببت يا صديقي القارئ أن تدخل جحيم الحكيم فاقرأ هذه المأساة (ص ٧٤)، لأني لا أوثر أن أدخلها معك!

بصر هذا الرجل الفنان الذي كان يربي على الثمانين أديبنا العظيم بدقائق الفن، وأطلعه على أسراره، كما بصره المسيو هاب بالأدب الكلاسيكي كله، أو أحسن روائعه . . . فهل تدري من بصره بالموسيقى؟ . . . إنها عجوز شمطاء . . . إنها أم المسيو أندريه الذي يقول لنا الحكيم إن هذا الكتاب الكبير الجميل هو الرسائل التي كتبها إليه من فرنسا إلى فرنسا . . . ومن الإسكندرية إلى

فرنسا، ومن طنطا ومن دسوق إلى فرنسا أيضاً. فلقد كان الحكيم يجرها من المطبخ بفوطتها لتجلس إلى البيانو حيث تغني له من (كارمن) ومن (فاوست) ومن (أجراس كورنفيل). . . إلى أن عرف طريق دار الأوبرا والأوبرا كوميك ثم قاعات الكونسير (كولون) و (جافو) و (بادلو) فلم يعد إليها بعد ذلك قط! أي كما صنع مع الشاعر الفنان البرناسي تماماً. . . وهنا أيضاً تتفتح أبواب جحيم الحكيم، فاختر لنفسك أيها القارئ!

ولست أدري لماذا لا نشبها جذعة بين موسيقيينا وبين توفيق الحكيم بمناسبة جزاء سنمار الذي لقيته هذه الأستاذة العجوز على يديه بعد أن كانت السبب في معرفته الأوبرا والأوبرا كوميك والسيمفونيات وبتهوفن! أيها الموسيقيون المصريون اعلموا أن الأستاذ توفيق الحكيم لا يطرب لكم، بل هو يضيق بكم، فهو يقول، وتستطيعون أن تجدوا هذا الكلام في كتابه زهرة العمر ص ١٦٦ (. . . أغالط

نفسي؟ أخشى أن يكون حبي للموسيقى الأوربية مصدره أنها قبل كل شيء بناء ذهني. ذلك أن موسيقانا، وهي قائمة على الطرب والتأثير المادي، لا تسترعي مني اليوم أي التفات. والواقع أن الموسيقى الأوربية بناء فني ذهني، شأنها في ذلك شأن القصة التمثيلية، والهندسة المعمارية. بل شأن المذهب الفلسفي والتفكير الرياضي!.) فما قول الأساتذة محمد عبد الوهاب ورياض السنباطي والقصبجي وفاضل الشوا في هذا الكلام العجيب عن الموسيقى؟! ومتى يحظى منكم الأستاذ الحكيم بشيء من المعادلات الجبرية وحساب المثلثات والجذور التكعيبية وقوانين طورشيلي وفيثاغورس، وجابر بن حيان والبيروني تبثونها له في ألحانكم لترتفعوا بها عن الطرب والتأثير المادي؟! لست أدري كيف تكون الموسيقى التي لا تطرب؟ ولست أدري كذلك كيف يكون تأثير الموسيقى مادياً؟! أعترف أولاً أنني لا علم لي مطلقاً بالموسيقى كعلم. . . بيد أني

أطرب، وهذا ما يعيبه الأستاذ الحكيم على الموسيقى الشرقية ـ كموسيقى عبد الوهاب والسنباطي والقصبجي وفاضل الشوا، وكثيراً ما أكتفي بالإصغاء إلى المقدمات الموسيقية عن الغناء، لكنني ما أحسست مرة أن يدي أو رجلي أو ظهري مثلاً أو أي عضلة من جسمي هي التي وقع عليها التأثير الموسيقي؛ بل الذي كان يتأثر في كل مرة هي روحي: . . أي أعصابي. . . والذي أعرفه أن المخ هو مركز الأعصاب كما أنه مركز الذهن. مع علمي بأن جدلاً كثيراً يدور حول هذه الحقائق النسبية. . . فكيف إذن يريد الأستاذ الحكيم أن تقوم موسيقى على غير التطريب؟ وماذا يعني بقوله إن الموسيقى الشرقية تقوم على الأثر المادي؟! أنا أفهم أن يقال إن الموسيقى الشرقية ما تزال متأخرة بل جامدة برغم ما أنشأ فيها عبد الوهاب والسنباطي والقصبجي وفاضل الشوا وغيرهم من كرام الموسيقيين، ولكنها تستطيع مع هذا، أن تقف على قدميها

إلى جانب الموسيقى الغربية، وتستطيع أن تفاخرها بميزات (روحية) ليست لها. . . أخشى يا حضرات الموسيقيين الشرقيين عبد الوهاب والسنباطي والقصبجي والشوا أن يضحك الأستاذ الحكيم ملء شدقيه من كلامي هذا عن الموسيقى الشرقية التي ابتدعتم فيها الأعاجيب فماذا أنتم صانعون؟

على أنني أحب أن ألفت نظر سائر الفنانين المصريين إلى ثورة الأستاذ توفيق الحكيم عليهم وإزرائه بهم. . . الأستاذ الحكيم الذي يرى. . . (أن الفنان هو الكائن العجيب الذي يجب أن يلخص الطبيعة كلها بمادتها وروحها في ذاته الضئيلة المحدودة. . . ذلك الكائن الذي يعيش في داخله الحيوان. . والإله جنباً إلى جنب! . . .)

لله ما أبدع هذا الكلام وما أروعه! لقد عاد توفيق الحكيم إلى مصر من فرنسا، فزعم أنه عاد إلى الصحراء! الصحراء التي لا تعرف الحياة الفكرية. لقد تعب من كل

شيء، ومن كل إنسان، ويئس من أن بلداً كمصر يصبح في يوم قريب ذا حياة فكرية؛ لأنه لا حياة في مصر لمن يعيش للفكر. إنه يريد تحطيم كل شيء، ليهيم على وجهه في بلاد الأرض، لا تحده غاية ولا توقفه غاية، ولا يوقفه غرض! إنه يطلب إلى صديقه أن يحدثه عما عنده في الشاطئ الآخر المائج بأضواء الحياة الفكرية، وهو يخبره أنه حينما عاد إلى الشرق ـ أي مصر ـ أصابه بادئ الأمر ذهول، ذهول عن أندريه وعن كل شيء، كمن وقع من السحاب حقيقة، ثم أخذ يتصفح الوجوه والأشياء حوله. يا لها من حقيقة مؤلمة! لقد رأى نفسه في شبه عالم نائم. لقد شعر بما قد يشعر من يهبط سطح القمر الأجرد المعتم، وعاش بضعة شهور بغير نفس ولا إدراك. وحينما ألقى إليه خطاب من أندريه أفاقه من (أفيون الشرق!) فرأى أنه في حاجة إلى شخص يهز له المصباح من الشاطئ الآخر، لأنه يعيش في صحراء يصيح في أرجائها. وأنه

يتألم آلام من يعيش في غير عصره. (قد تسألني أليس في مصر طبقة المستنيرين؟ نعم في مصر طبقة مستنيرة فيها كثيرون عاشوا في أوربا وعرفوا الثقافة الأوربية، وفيهم من يعرف الفن الأوربي ويتكلم عن المصورين والتصوير، ومن يتكلم حتى عن برامس وباخ وهاندل. ولكن النادر أن تجد بين هؤلاء من عرف أن الثقافة الحقيقية شيء والكلام فيها شيء آخر. . . إن هؤلاء المتكلمين في الموسيقى والتصوير والفنون يعرفونها برؤوسهم ولا يدركونها بحواسهم. إن المطلوب للثقافة ليس مجرد المعرفة بل الإحساس والتذوق والتغذي بمختلف الفنون. . . الثقافة ليست كلاماً نملأ به الرؤوس ولكنها يقظة الملكات كلها والحواس. إذا سلمت بقولي هذا فلا أبالغ إذا قلت لك أن ليس في مصر عدد أصابع اليدين من المثقفين)

ولست أدري إذا أردنا أن نحصي هؤلاء التسعة أو الثمانية المثقفين في مصر فكم منهم يكون من فئة المصورين

وكم يكون ـ أو يكونـون ـ مـن فئـة الموسـيقيين، ثـم مـن المثالين والممثلين ورجال الأدب والفكر والصحافة والمسرح (مؤلفين ومخرجين ومهندسين. . .)

ولست أدري ماذا يريد الأستاذ توفيق من النزول بمصـر العزيزة والشرق الناهض إلى مراتب البيد، وبعدد المـثقفين في نظره إلى ما دون العشـرة مـع أن مصـر والشـرق بخـير، وهما يعجان بالمثقفين الذين تنطبق عليهم شروطه الثقافيـة انطباقاً تاماً ومع أن عدد المصورين وحدهم يربـي في مصـر وحدها على الثلاثة أو الأربعة، وعدد المثـالين يزيـد علـى الأربعة أو الخمسة، وعدد الموسيقيين يزيد على الاثـنين أو الثلاثة، وعدد الأدباء يزيد وحده على الثمانية أو التسـعة ـ والأستاذ الحكـيم مـنهم بـالطبع بـل في مقـدمتهم، وعـدد المخـرجين المسـرحيين يقـارب الثلاثـة، وعـدد الممـثلين والمغنين والمغنيات يزيد علـى السـتة. . . وإن كـان عـدد

المـؤلفين المسـرحيين لا يصـح أن يتجـاوز الواحـد . . . وذلك عندما يؤلف توفيق الحكيم للمسرح

لولا مغالاة الحكيم في التشاؤم . . . لكان كل مـا قالـه في زهرة العمر حقاً . . . ولا سيما هذا الكلام الـذي قالـه عن الأدب العربي واللغة العربية وأساليب الكتابة العربية، مما يحتاج حديثاً آخر، وليتأخر الكتاب على الأستاذ الزيات أسبوعاً ثالثاً، فما أكثر الهدايا التي تصـل إلى الرسـالة مـن المؤلفين اليوم

دريني خشبة

٢٠ ـ ١٢ ـ ١٩٤٣

obeikandl.com

الهجرة
رواية في فصل واحد وسبعة مناظر

إني أشهد أن محمداً نبي كريم
إني أشهد أن محمداً بشر عظيم
إني أسجد للعظمة والنور
وما صفحاتي إلا إشهاد وسجود.

توفيق الحكيم

obeikandl.com

المنظر الأول

كان النبي (ص) جالساً وحده في المسجد وأشراف قريش مجتمعون عن كثب يتهامسون. . . .

قريش ـ ما الرأي في محمد؟ إن عمه أبا طالب يمنعه وينصره علينا

عتبة بن ربيعة ـ أجل، ولا قِبل لنا بأبي طالب

أبو جهل ـ إني لأخشى أن يَتابع محمداً بعض رؤوس القوم فيعز ويمتنع ويفشو أمره في القبائل

أبو سفيان ـ ما أحسبه يا أبا الحكم إلا نائلا منا إن تركناه فيما هو فيه

قريش ـ وما الرأي؟

عتبة (تبدو له فكرة)

يا معشر قريش! ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟

قريش ـ بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه

(يقوم عتبة إلى رسول الله ويجلس إليه. . . .)

عتبة (للنبي)

يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم: فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، وكفرت به من مضى من آبائهم؛ فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

محمد ـ قل يا أبا الوليد، أسمع

عتبة ـ يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد به شرفاً، سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً، ملّكناك علينا، وإن كان هذا الوحي الذي يأتيك رئيّاً تراه لا تستطيع رده

عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.

(يسكت عتبة وينظر إلى النبي)

محمد ـ أقد فرغت يا أبا الوليد؟

عتبة ـ نعم

محمد ـ فاستمع مني

عتبة ـ أفعلُ

محمد (يتلو)

بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، فاعمل إننا عاملون. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ، إنما إلهكم إله واحد، فاستقيموا إليه

واستغفروه، وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون. . .

عتبة (ينصت ويلقي يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه. . .)

محمد (يمضي فيها يقرؤها عليه)

ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون. قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم. فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألاَّ تعبدوا إلا الله،

قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أُرسلتم به كافرون، فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون. فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون. وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون. . .

(ينهي رسول الله إلى السجدة منها فيسجد. . . .)

عتبة ـ (مأخوذا كأنما على رأسه طائر واقع. . . . .)

محمد ـ قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك

عتبة ـ (يقوم إلى أصحابه صامتا)

أبو جهل (لقريش ناظرا إلى عتبة مقبلا عليهم)

أحلف لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به

عتبة ـ (يجلس إليهم ساكناً)

أبو جهل ـ ما وراءك يا أبا الوليد؟

عتبة ـ (في صوت متغير)

ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه

(قريش يعروها دهش ويصمت الجميع)

أبو جهل ـ (ينتبه ويرفع رأسه ملتفتاً إلى عتبة. . .)

سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه عتبة ـ والله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ

قريش ـ أهذا رأيك فيه؟

عتبة ـ هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم . . .

obeikandl.com

المنظر الثاني

(بعد غروب الشمس. . . . . أشراف قريش عند ظهر الكعبة)

أمية بن خلف ـ هل بعثتم إليه؟

أبو سفيان ـ نعم، لقد بعثنا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك

أمية بن خلف ـ أجل، ابعثوا إليه فكلموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه

أبو جهل ـ لن يستطيع اليوم أن يسحرنا بحديثه كما سحر أبا الوليد

أبو سفيان (ينظر)

ها هو ذا مقبلا سريعاً

أمية ـ (ينظر)

أرى في وجهه المستبشر أنه يظن أن قد بدا لنا فيه بداء

(رسول الله يحضر ويجلس إليهم مستبشراً طامعاً في إسلامهم)

أبو سفيان ـ (لأبي جهل)

كلمه أنت يا أبا الحكم

أبو جهل ـ (لرسول الله)

يا محمد! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام. فأن كنت إنما جئت بهذا الحدث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وان كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وان كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وان كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك

(يسكت وينظر إلى النبي)

محمد ـ ما بي ما تقولون. ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل على كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وان تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم

قريش (تتهامس)

أنه غير قابل

أبو جهل ـ يا محمد إن كنت غير قابل شيئاً مما عرضناه عليك فانك تعلم أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل، فان صدقوك وصنعت ما سألناك

صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا كما تقول

محمد ـ ما بهذا بعثت اليكم، انما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فان تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وان تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم

قريش (تتهامس)

أنه والله غير فاعل

أبو جهل ـ فإذا لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك

أبو سفيان ـ وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة، يغنيك بها عما تراك تبتغي، فانك تقوم بالأسواق كما نقوم، تلتمس المعاش كما نلتمسه

أمية ـ نعم، فليجعل لك قصوراً وكنوزاً حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم

محمد ـ ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هـذا ومـا بعثت إليكم بهذا، ولكـن الله بعـثني بشـيراً ونـذيراً، فـان تقبلوا ما جئتكم به فهـو حظكـم في الـدنيا والآخـرة، وأن تردوه عليّ أصـبر لأمـر الله حتـى يحكـم الله بـيني وبيـنكم قريش (تتهامس)

فليرنا ما يتوعد

أبو جهل ـ أسقط السماء علينا كسَفا كما زعمت، فان ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل

محمد ـ ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل

أبو سفيان ـ يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلـب فيتقـدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صـانع في ذلـك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟

أبو جهل ـ يا محمد، أنه قد بلغنا أنك أما يعلمـك هـذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نـؤمن بـالرحمن

أبدا؛ فقد أعذرنا إليك، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا

أمية ـ نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله

أبو سفيان ـ لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا

محمد (يقوم عنهم يائسا) (ويقوم معه عبد الله بن أبي أمية)

عبد الله ـ يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن أخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل، فوالله لا أوآمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلّما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي بصك ومعك أربعة من الملائكة

يشهدون لك أنك كما تقول وايم الله أن لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك

محمد ـ (ينصرف حزيناً آسفاً)

أبو جهل ـ يا معشر قريش، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آلهتنا، وأني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم

الجميع ـ والله لا نسلمك لشيء أبداً، فامض لما تريد

obeikandl.com

المنظر الثالث

أبو طالب (وقد حضره الموت. . . . . .
. . . . . .)
أبو طالب ـ شربةَ ماء
العباس (على رأسه يسقيه)

أبو طالب (يلتفت)
من هذا؟
العباس ـ أين؟
أبو طالب (يشير إلى الباب)

العباس (يتوجه إلى الباب ينظر ثم يعود)
هو أبو جهل في رجال من أشراف قومه، ما أحسبهم إلا يمشون إليك في أمر محمد ابن أخيك

obeikandl.com

أبو طالب ـ أدخلهم عليّ

العباس (يدخلهم)

أبو جهل ـ يا أبا طالب، انك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ له منا وخذ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه

أبو طالب (يشير إلى العباس أن يبعث إلى محمد)

العباس (يخرج في طلبه ثم يعود)

لقد جاء محمد

(يدخل رسول الله)

أبو طالب (للنبي)

يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك

محمد ـ نعم يا عم، كلمة واحدة يعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم

أبو جهل ـ نعم وأبيك وعشر كلمات

محمد ـ تقولون، لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه

(يصفق القوم بأيديهم)

أبو جهل ـ أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحداً؟ إن أمرك لعجب

أبو سفيان (يتهيأ للانصراف مع بعض القوم) والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه

(يتفرقون ويخرجون)

أبو طالب (للنبي بعد خروج قريش) والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططا

محمد (ناظرا إليه طامعاً في إسلامه)

أي عم، فأنت فقلها، أستحل لـك بهـا الشـفاعة يـوم القيامة

أبو طالب ـ يا ابن أخي، والله لولا مخافـة السـبة عليـك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنما قلتهـا جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها. . . .

(يقترب منه الموت)

العباس أخي. . . .

أبو طالب ـ من هذا؟

العباس ـ أين؟

أبو طالب ـ (يغمض عينيه ويحرك شفتيه)

العباس (ينحني عليه، ويصغي إليه بأذنه ثم يهمس إلى رسول الله. . .)

يا ابن أخي، والله لقد قال أخي الكلمـة الـتي أمرتـه أن يقولها

محمد ـ لم أسمع

obeikandl.com

المنظر الرابع

(بيت النبي في مكة)

بلال ـ (يدخل باكياً)

جارية ـ ويحك يا بلال . ما بك؟

بلال ـ قاتلهم الله

الجارية ـ ما يبكيك يا بلال؟

بلال ـ قاتلهم الله

الجارية ـ من هم؟

بلال ـ أغروا أحد سفهائهم فاعترض رسول الله وحثا على رأسه التراب

الجارية ـ التراب؟

بلال ـ نعم

الجارية ـ قريش؟

obeikandl.com

بلال ـ نعم . هي قريش صنعت هذا

الجارية ـ نعم ، اليوم

بلال ـ واحزناه عليك يا أبا طالب . من ذا يمنع اليوم النبي وينصره؟

الجارية ـ (ترى إحدى بنات النبي مقبلة)

صه ودع البكاء عنك يا بلال

بلال ـ (يرى النبي مقبلا)

رسول الله . . .

(ثم يكفكف دمعه سريعاً)

محمد ـ (يدخل والتراب على رأسه)

ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب

ابنته ـ (تبكي)

(ثم تأتي بماء وتغسل عن النبي التراب . . . .)

محمد ـ لا تبكي يا بنية ، فان الله مانع أباك

المنظر الخامس

(في الطائف. النبي في نفر من سادة ثقيف وأشرافهم على مقربة من حائط لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة وهما فيه ينظران)

عتبة ـ (يهمس)

ما جاء به إلى الطائف؟

شيبة ـ ما أحسبه إلا جاء يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه

عتبة ـ قريش؟

شيبة ـ نعم، ما كان أحد يمنعه وينصره على قريش إلا عمه أبو طالب، فلما هلك عمه نالته قريش من الأذى بما لم تكن تطمع به في حياة عمه

عتبة ـ وهل تحسب ثقيفاً ناصرة إياه؟

شيبة ـ إن لم تنصره ثقيف فلا ناصر له

obeikandl.com

عتبة ـ (يلتفت إلى ناحية القوم)

انظر يا شيبة . انه جلس إلى أشراف ثقيف يـدعوهم إلى ربه الذي يحدث عنه . وما أرى في وجوه القوم إلا اسـتهزاء به وبما يقول

شيبة ـ (ينظر)

سمع . هذا مسعود بن عمرو يدنو منه

مسعود ـ (يدنو حقيقة من النبي)

أني أمرط ثياب الكعبة ان كان الله أرسلك

عتبة ـ (لشيبة همساً)

أسمعت؟

شيبة ـ (هامساً)

سمعت

عتبة ـ (همساً)

أرى وجهه قد تغير

شيبة ـ هذا أيضاً عبد ياليل بن عمر يدنو منه

عبد ياليل (يدنو من النبي)

أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟

عتبة ـ (هامساً)

انهم يغلظون له

شيبة ـ صه . هذا حبيب بن عمرو يدنو منه كذلك ليقول له شيئاً

حبيب ـ (للنبي)

والا لله اكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام . ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك

محمد ـ (يقوم وقد يئس منهم)

عتبة ـ انظر يا شيبة ، انه قد قام

شيبة ـ ما أراه إلا بائساً حزيناً

عتبة ـ انه يريد أن يقول لهم شيئاً، اسمع

محمد ـ (للقوم)

إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني

عتبة ـ (هامساً)

ماذا يريد بهذا؟

شيبة ـ لعله يكره أن يبلغ قومه عنه خذلان ثقيف له فيذأرهم ذلك عليه

(صياح وأصوات).

عتبة ـ ما هذا الصياح؟

(ينظر)

انظر هؤلاء ناس وعبيد تصيح به

شيبة ـ (ينظر)

ما أحسب إلا أن القوم قد أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به.

عتبة ـ انظر لقد اجتمع عليه الناس وهو لا يستطيع منهم فرارا

شيبة ـ ما أرى إلا أنه سيلقى منهم أذى كثيرا

عتبة ـ أنه مقبل علينا

شيبة ـ أنهم يسدون عليه السبيل

(الصياح يقترب)

عتبة ـ لقد ألجأوه إلى حائطنا

شيبة ـ، أجل، ها هو ذا يسقط إعياء

(النبي قد عمد حقيقة إلى ظل حيلة من عنب فجلس فيه وقد رجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف. . .)

عتبة ـ أي هوان يلقى هذا الرجل من أهل الطائف!

شيبة ـ أتحركت له رحمتك يا عتبة؟

عتبة ـ (ينظر إليه)

اسمع. اصغ. أنه يقول شيئاً

محمد ـ (وقد اطمأن قليلاً بعد ذهاب الناس عنه. . .)

اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتهجمني، أم إلى

عدو ملكته أمري؟ أن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبـالي . ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعـوذ بنـور وجهـك الـذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك . لك العتبـى حتـى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك

عتبة ـ (همساً لأخيه شيبة)

أسمعت؟

شيبة (مأخوذا)

نعم!

عتبة ـ أيمكن أن يكون مثل ذلك الرجل كذاباً؟

شيبة ـ ويحك يا عتبة!

عتبة (ينادي غلامه همساً)

يا عداس!

عداس ـ لبيك!

عتبة ـ خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثـم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه

عداس (؟ يسارع إلى ما أمر به)

شيبة (ينظر إلى وجه أخيه)

ما حملك على هذا؟

عتبة (ينظر إلى النبي)

انظر يا شيبة، إن عداساً قد أقبل بـالطبق ووضـعه بـين يديه

عداس (للنبي)

كل!

محمد (يضع يده في الطبق)

بسم الله!

(ثم يأكل)

عداس (ينظر في وجه النبي)

والله أن هذا لكلام ما يقوله أهل هذه البلاد

obeikandl.com

محمد ـ ومن أهل أي البلاد أنت؟ وما دينك؟

عداس ـ نصراني . وأنا رجل من أهل نينوى

محمد ـ من قرية الرجل الصالح يونس بن متي

عداس ـ وما يدريك ما يونس بن متي؟

محمد ـ ذاك أخي . كان نبياً وأنا نبي

عداس ـ (يكب على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه . . .)

عتبة ـ (هامساً لشيبة)

أرأيت؟

شيبة ـ نعم

عتبة ـ وما تقول في هذا؟

شيبة ـ أما غلامك فقد أفسده عليك

عداس (يقبل عليهما)

obeikandl.com

عتبة ـ ويلك يا عداس، مالك تقبل رأس هـذا الرجـل ويديه وقدميه؟

عداس ـ يا سيدي ما في الأرض شيء خـير مـن هـذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي

شيبة ـ ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينـك، فـان دينك خير من دينه

عداس ـ إن مثل هذا لا يمكن أن يحتمـل مـا لقـي إلا في سبيل الحق، ولا أن يثبت على دينـه بعـد كـل هـذا إلا أن يكون دينه دين الحق.

obeikandl.com

المنظر السادس

(دار الندوة التي تجتمع فيها قريش للمشـاورة. إبلـيس في ثياب شيخ نجدي جبيل يدخل الدار وهي خاليـة فتلقـاه حية تظهر في الحائط)

الحية ـ (تصيح به)

إبليس في لبوس شيخ من نجد؟

إبليس ـ لا تصيحي أيتها الصئيلة

الحية ـ ماذا جئت تصنع في دار الندوة؟

إبليس ـ أريد محمدا

الحية ـ تريد به الهلاك

إبليس ـ أريد لنفسي الحياة

الحية ـ ماذا صنع بك؟

إبليس ـ سيغير وجه الأرض!

الحية ـ كيف؟

obeikandl.com

إبليس ـ نور يخرج من قلبه يضيء الأرض

الحية ـ وما يضيرك هذا؟

إبليس ـ يعمي بصري هذا النور

الحية ـ أطفئه من قلبه

إبليس ـ لا سلطان لي على مثل هذه القلوب

الحية ـ قلب لا ككل القلوب، إني لأذكر أمره، لقد أتاه الملكان وهو صغير بطست من ذهب مملوءة ثلجاً فأخذاه فشقا بطنه واستخرجا قلبه، فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قبله وبطنه بذلك الثلج حتى أنقياه. . .

إبليس ـ العلقة السوداء!

الحية ـ تلك رسولك في كل قلب

إبليس ـ تبا له، تبا له

الحية ـ كما كنت أنا رسولك إلى أول قلب

إبليس ـ حواء؟

الحية ـ ذاك يوم ملعون إلى أبد الآبدين

إبليس ـ أتندمين؟

الحية ـ ماذا جنيت من كل هذا؟

إبليس ـ قلت لك : تلك حياتي

الحية ـ حياة ملعونة في كل زمان

إبليس ـ ويل للنفاق! ويل للنفاق!

الحية ـ نفاقك

إبليس ـ بل نفاق من يلعننا

الحية ـ كنت أود أن تفتن غيري

إبليس ـ أود أن أفتن هذا الرجل

الحية ـ انك تقول أن لا سبيل لك عليه

إبليس ـ تبّاً لي!

الحية ـ أنه ليس كغيره من الناس

إبليس ـ تبا له!

obeikandl.com

الحية ـ لقد وزنه الملكان وهو صغير بعشرة من أمته فوزنهم، ثم وزناه بمائة من أمته فوزنهم، ثم وزناه بألف من أمته فوزنهم: فقالا والله لو وزناه بأمته كلها لوزنها

إبليس ـ صه. انهم قادمون

الحية ـ من هم؟

إبليس ـ ادخلي جحرك. ولأتخذن لغة القوم

(الحية تختفي ويقف إبليس بباب الدار ويدخل أشراف قريش)

أبو سفيان (لإبليس)

من الشيخ؟

إبليس ـ شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتَّعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، عسى ألا يعدمكم منه رأي ونصح

أبو جهل ـ أجل فادخل

(إبليس يدخل معهم ويجتمعون في دائرة. . .)

أبو سفيان ـ تكلم يا أبا الحكم

أبو جهل ـ إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيا.

أمية بن خلف ـ احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله: زهير أو النابغة ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم

إبليس ـ لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره.

أبو سفيان (يتفكر قليلا)

نخرجه من بين أظهرنا فتنفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه، أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت إبليس ـ لا والله ما هذا لكم برأي. ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد. دبروا فيه رأياً غير هذا

أبو جهل (بعد تفكير)

والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد

أبو سفيان ـ وما هو يا أبا الحكم؟

أبو جهل ـ أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً فتى جليداً نسيبا وسيطا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه

فنستريح منه، فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم

إبليس (مبتهجاً)

القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره

(يتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له. . .)

obeikandl.com

المنظر السابع

(ليلة الهجرة. . . . النبي في داره. . .)

جبريل (للنبي)

لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه

(يرتفع الملك)

علي بن أبي طالب (يدخل هامساً)

ألمح في عتمة الليل رجالاً قد اجتمعوا على بابك، ما أحسبهم إلا يرصدونك حتى تنام فيثبون عليك

محمد ـ نم على فراشي والتف ببردى هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه، فانه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم

(علي يفعل ما أمره به النبي)

أبو جهل ـ (يهمس بين الرجال على باب النبي)

أكره أن يفلت منا الليلة كما أفلت مني يوم احتملت الحجر أري فضخ رأسه في المسجد

أمية (هامساً)

وكيف أفلت منك يومئذ؟

أبو جهل (هامساً)

ما أدري والله. لقد أقبلت نحوه حتى إذا دنوت منه رجعت مرعوباً وقد يبست يداي على حَجري حتى قذفته من يدي، فقد عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني

أمية ـ سحرك والله يا أبا الحكم

أبو جهل ـ إن كان قد سحرني يومئذ فما أحسبه يستطيع ذلك الليلة معكم جميعاً

أمية ـ أرى أنه قد نام

أبو سفيان (يتطلع إلى مكان النبي)

انه نائم في برده الأخضر الذي ينام فيه

أبو جهل ـ إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وان لم تفعلوه كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم ناراً تحرقون فيها

(رسول الله يخر عليهم آخذا حفنة من تراب في يده. .)

محمد ـ نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم

(ينثر عليه الصلاة والسلام التراب على رؤوسهم حتى لم يبق منهم رجلا إلا وقد وضع على رأسه تراباً وهو يتلو:)

يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين، على صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم، لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون. لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون. إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم

مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون.

(ينصرف النبي وهم كالنائمين لا يبصرون. . . .)

راع (يمر بهم)

قريش (لا تراه)

الراعي (لقريش)

ما تنتظرون ههنا؟

الجميع (كأنما افاقوا يهمسون)

محمدا

الراعي ـ خيبك الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟

الجميع (يضع كل منهم يده على رأسه)

obeikandl.com

حقا هذا تراب، ما هذا التراب؟

(يتطلعون إلى فراش النبي وفيه علي في برد رسول الله)

أبو جهل (متطلعاً)

والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده

الراعي (كالمخاطب لنفسه)

إن محمداً قد هاجر أيها الغافلون. . . !)

obeikandl.com

الدفاع عن الإسلام

قرأت لتسع سنوات خلت قصة فولتير التمثيلية (محمد)، فخجلت أن يكون كاتبها معدوداً من أصحاب الفكر الحر. فقد سب فيها النبي سباً قبيحاً عجبت له. وما أدركت له علة، لكن عجبي لم يطل، فقد رأيته يهديها إلى بنوا الرابع عشر بهذه العبارات:

(فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجاباً بالفضيلة، إذا تجرأ فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية. والى من غير وكيل رب السلام، والحقيقة أستطيع أن أتوجه بنقدي قسوة نبي كاذب وأغلاطه؟ فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه؛ وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة. وإني مع الإجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القدسيتين) (فولتير ١٧ أغسطس ١٧٤٥).

وعلمت في ذلك الحين أن روسو كان يتناول بالنقد أعمال فولتير التمثيلية، فاطلعت على ما قال في قصة (محمد) علني أجد ما يرد الحق إلى نصابه، فلم أر هذا المفكر الحر أيضاً يدفع عن النبي ما أُلصق به كذباً، وكأن الأمر لا يعينه، وكأن ما قيل في النبي لا غبار عليه ولا حرج فيه، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هي أدب وفن. ولقد قرأت بعد ذلك رد البابا بنوا على فولتير، فألفيته رداً رقيقاً كيساً لا يشير بكلمة واحدة إلى الدين، وكله حديث في الأدب. فعظم عجبي لأمر فولتير، وسألت نفسي طويلاً: أيستطيع عقل مثقف كعقل هذا الكاتب العظيم أن يعتقد ما يقول. دين تبعه آلاف الملايين من البشر على مدى الأجيال، هو في نظره حقاً دين كاذب؟ ومبادئ إنسانية كالتي جاء بها الإسلام، هي عنده حقاً مبادئ بربرية؟ أم إنه التملق والزلفى والنفاق. وإن

الزمن والتاريخ يضعان أحياناً أقنعة زائفة على نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر . . .

منذ ذلك اليوم وأنا أحس كأني فجعت في شيء عزيز لدي : الإيمان بنزاهة الفكر الحر . ولقد كنت أحياناً ألتمس الأعذار لفولتير ، وأزعم أنه قال ما قال لا عن مجاملة أو ملق ، بل عن عقيدة وحسن طوية استناداً على علم خاطئ بأخبار النبي ، ولكن كتابه إلى البابا كان يتهمه اتهاما صارخاً ، ويدع مجالاً للشك في دخيلة أمره . إني قرأت لفولتير كتباً أخرى كانت تكشف عن آراء حرة حقاً في مسائل الأديان ، وتنم عن روح واسعة الآفاق تكره التعصب الذميم ، فما باله عند عرض لذكر محمد والإسلام كتب شيئاً هو التعصب بعينه ، تعصبٌ لدينه ، ذهب فيه إلى حد السجود وتقبيل الأقدام ، لا لرب العزة والخلق ، بل لبشر هو رئيس الكنيسة التي ما أرى أن فولتير كان في ذات يوم من خدامها المخلصين . هي الأطماع التي

كانت تدفع فولتير فيما أرى إلى التمسح بأعتاب الملوك والبابوات، ولقد يقدم ثمناً لذلك أفكاره الحرة أحياناً. منذ ذلك الحين وفولتير عندي متهم، ولن أبرئه أبداً، ولن أعده أبداً من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر. وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم، فينتقم للحق بما افتراه على نبي كريم ظلماً وزوراً. على أن الذين يدعو إلى الدهش أكثر من كل هذا أن الشرق والإسلام وقفا من الأمر موقف النائم الذي لا يعي ولا يشعر بما يحدث حوله، فلم أر كاتباً من كتاب الإسلام قام في ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذي قال فولتير، ويقذف في وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة، أو أن مؤلفاً وضع كتاباً يبرز فيه شخصية النبي الخيرة العظيمة واضحة جلية. لقد كان الشرق في ليل هادئ بهيم لم تثر فيه حركة فولتير يومئذ ساكناً، ولكن اليوم قد تغير الأمر، ولاجت في أفق الشرق خيوط

الفجر، وقام في هذا القرن كتاب يمجدون عقيدتهم وهم يعلمون أن في ذلك تمجيداً للحق وللشرق، فان المسألة ليست مسألة دين فقط، إنما هي أيضاً مسألة جنس وقومية؛ وإذ تقول أوربا: (الإسلام) فإنما تعني في غالب الأحيان (الشرق) إن الحروب الصليبية في حقيقتها لم تكن إلا حرب الغرب على الشرق؛ وإن الفتح الإسلامي عندما بلغ فرنسا وهدد أوربا لم يكن في الواقع إلا حرب الشرق على الغرب. هذا المد والجزر بين الغرب والشرق يفهمه مفكرو الأوربيين تمام الفهم، ويحسبون له الحساب، ويعملون دائماً على أن تكون الغلبة لهم آخر الأمر، أو أن يطيلوا على الأقل أمد غلبتهم إن كان لابد من تبدل الحال ومن دوران الفلك طبقاً لناموس أعلى لا قبل لهم به. فالدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا، وإن الكتابات التي توجه لهذا الغرض النبيل ينبغي أن يكون لها علينا حق المؤازرة والتعضيد؛ وإني لست بناقد منقطع

للنظر في أعمال المؤلفين وتقدير ما يكتبون، ولكني أريد أن أشير إشارة سريعة إلى ثلاثة أساليب مختلفة من أساليب الكتابة، اتجهت في العصر الحديث إلى هذه الغاية، كل في دائرته.

ففي الكتابة الدينية: (الرد على هانوتو) للأستاذ الإمام محمد عبده، فلقد نشر هانوتو الكاتب والوزير الفرنسي يوماً مقالة جاء فيها:

(لقد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية، اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الأفريقية بسرعة لا تجاري حاملين في حقائبهم بعض بقايا البيزنطيين (يونان الشرق) ثم تراموا بها على أوربا، ولكنهم وجدوا في نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها إلى آسيا، بل أقرب في الصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم، ألا وهي المدنية الآرية المسيحية، ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذي إليه وصلوا، وأكرهوا على الرجوع إلى أفريقية حيث

ثبت فيها أقدامهم أحقاباً متعاقبة) ثم قال في موضع آخر: (وقصر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحي والإسلامي، فرأى في الإسلام العدو الألد والخصم الأشد. قال جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك فيهم فتكاً ذريعاً، بل هي مرض مريع وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء، ويدمن على معاقرة الخمور، ويجمح في القبائح، وما قبر محمد في مكة إلا عمود كهربائي يبث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الهستريا (الصراع) العامة والذهول العقلي، وتكرار لفظة الله إلى ما لانهاية، والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصلية ككراهية لحم الخنزير، والنبيذ، والموسيقى، والجنون الروحاني، والليمانيا، والماليخوليا، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات) الخ الخ

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية، وحيوانات مفترسة (كالفهد والضبع، كما يقول المسيو كيمون (وأن الواجب إبادة خمسهم) كما يقول أيضاً (والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر) وهذا أيضاً قوله (. وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشري. . أليس كذلك؟ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليوناً مسلماً، وأن من الجائز أن يهب هؤلاء (المجانين) للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم. . الخ الخ)

فما ظهر هذا الكلام في صحيفة المؤيد، حتى قام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لساعته مجرداً قلمه وكتب نحو أربع مقالات هي أقوى ما قرأت دفاعاً عن الإسلام، وإظهاراً لحقيقة مبادئه الخافية على أغلب الأوربيين. وقد ورد على هانوتو فيما أوردنا صائحاً: (ما هذا التمدين

الآري الـذي كانـت عليـه أوربـا عنـدما انـتقص أطرافهـا المسلمون؟؟)

هل كانت تلك المدنية هي التسافك في الدماء، وإشهار الحرب بين الدين والعلم، وبين عبادة الله وبـين الاعـتراف بالعقل، نعم هذا هو الذي كان معروفاً عند الغربيين وقت ما ظهر الإسلام.

ماذا حمل الإسلام إلى أوربا، وما هي المدنية التي زحـف عليهم بها فردوها؟ زحف عليهم بمـا اسـتفاد مـن صـنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين، زحف عليهم بعلوم أهل الفرس والمصريين والرومـانيين واليونـانيين. نظـف جميـع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التي تراكمت عليه بأيدي الرؤساء في الأمم الغربية المتسكعين الذين كانوا في ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون.

إني أكيل لمسيو هـانوتو إجمـالاً بأجمـال، والتفصـيل لا يجهله قومه، وكثير من منصفيهم لم يستطع إلا الاعـتراف به.

إن أول شرارة ألهبت نفوس الغـربيين فطـارت بهـا إلى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشـعلة الموقـدة الـتي كـان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها، وعمـل رجـال الـدين المسـيحي علـى إطفائهـا مـدة قـرون فمـا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. واليوم يرعى أهل أوربا ما نبـت في أرضهم، بعد ما سقت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيـدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالـع المدنيـة الحاضرة).

ثم رد الإمام في موضع آخـر: (يجـب علـى الباحـث في الإسلام أن يطلبه في كتابه، كما يجب عليه أن يطلب آثـاره والإسلام إسلام، والمسلمون مسلمون، ولو استشم مسيو (كيمون) الذي استشـهد هـانوتو بكلامـه ريـح العلـم لمـا

استفرغ ذلك القذر من فيه، ولا حاجة إلى الكلام فيه، فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه.

من أين أُتى المسلمون وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه، وفي عوائدهم بالتمويه؟ وممن تعلموا الافتراس، وعمن أخذوا الضراء بالشهوات؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون، والله من ورائهم محيط.

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى سقطوا في مساقطهم، وطارحوا الأوهام حتى انجروا إلى مطارحهم، وباءوا بما كان لهم وما عليهم.

حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائل، وترامت بالناس إلى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون).

أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله إليه في تنزيله على لسان نبيه،

ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم، واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شراً عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع.

يرى كيمون أن تخلى وجه الأرض من الإسلام والمسلمين، ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف في طريق ذلك كثرة عدد المسلمين؛ وبئسما اختارا لسياسة بلدهما أن يظهرا ضغنهما، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلهما.

أما فليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الإسلام إن طالت به غيبة، فله أوبة، وإن صدعته النوائب فله نوبة، وقد يقول فيه المنصفون من الانكليز مثل (اسحق طلير) وهو قس شهير ورئيس في كنيسة:

(إنه يمتد في أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره، والشجاعة والاقدام من أنصاره).

بهذا القلم وهذه المعرفة وهذا الذهن، وقف رجل الإسلام الحديث محمد عبده يذود عن بيضته أمام عدوان جهابذة الفكر والقلم من الأوربيين.

أما في الكتابة الأدبية، فأذكر (على هامش السيرة) للدكتور طه حسين، ففي هذا الكتاب دفاع عن الإسلام كما يستطيع الأدب البحت أن يدافع. فهو لا يسلك الطريق المستقيم في الكلام عن الإسلام، ولا يلجأ إلى التدليل العقلي، إنما يخلق جواً شعرياً يحبب إلى النفس سيرة النبي وبيئته؛ وقد عمد الدكتور طه حسين إلى الأساطير ينسج منها هذا الجو الأدبي الجميل، وتلك وسيلة الأدب والفن، ومن ذا يقرأ هذا الوصف لبلاد النبي ولا تأخذه روعته؟:

(هنالك دعت (آمنة) إليها من حضرها من نساء بني هاشم، فأسرعن إليها وقضين معها ليلة لا كالليالي، أنكرن فيها كل شيء وأعجبن بكل شيء، أنكرن حتى

أنفسهن، فقد رأين ما لم ير أحد، وسمعن ما لم يسمع أحد، وأحسسن ما لم يحس أحد. ولم تكن آمنة أقلهن إنكاراً وإكباراً وإعجاباً ـ فقد كانت ترى وهي يقظة غير نائمة أن نوراً ينبعث منها فيملأ الأرض من حولها، ويزيل الحجب عن عينيها، وكانت تنظر فترى قصور بصري في أطراف الشام، وكانت تنظر فترى أعناق الإبل تردى في أقصى الصحراء، وكانت لا تتحدث إلى من حولها بما ترى مخافة أن ينكرن ما تقول، وأن يظن بها الظنون، وكانت هذه من صاحباتها لا تمد طرفها إلى شيء حتى تراه نوراً كله، لا ظلمة فيه وإنما هو مشرق مضيء، أو هو الإشراق الخالص، وكانت هذه الأخرى من صاحباتها تنظر، فإذا نجوم السماء تدنو من الأرض وتمد إليها أشعة قوية نقية باهرة ساحرة، وإنها لتدنو وتدنو حتى يخيل إلى الرائية أنها توشك أن تمسها وتقع عليه).

لقد دافع طه حسين عن الإسلام في كتابه (على هامش السيرة) وإن كان لم يقصد إلى ذلك. فإن الأدب الصرف والفن الصرف لا يقصدان أحياناً إلى شيء، ولكن في مجرد صوتيهما أبلغ الكلام.

أما في الكتابة العلمية فها هو ذا كتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل بك. ولو أني أعتقد أن أسلوب الدكتور هيكل في (حياة محمد) يدخل أيضاً في منطقة الكتابة الأدبية، فإن هذا الكتاب يعتبر في نظري من كتب (التراجم والسير) التي يضعها الكتاب الأدباء، لا من البحوث العلمية التي يؤلفها المؤرخون العلماء ويعنون فيها بإضافة شيء جديد إلى العلم المعروف، أو استكشاف وثيقة من الوثائق التحريرية أو الآدمية، أو تحقيق مصدر من المصادر. على أن كتاب هيكل هو بلا نزاع أول سيرة نبوية خليقة أن تمثل تطور العقلية الإسلامية في هذا العصر الحديث.

وما أشق انتظارنا هذه الأجيال الطويلة لهذه السيرة الحديثة نضعها إلى جانب سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية وطبقات ابن سعد وغيرها من السير القديمة حتى يستطيع عصرنا أن يجهر بأنه فعل شيئاً من أجل الإسلام.

ولو أن الأستاذ الشيخ محمد عبده حي اليوم لاستقبل هذا الكتاب بمثل ما استقبله به الأستاذ الشيخ المراغي، فرحاً بهذا القلم الجديد ينهض لخدمة الحق والإسلام.

ولقد ذكرت هذه الكتاب وهذه الأساليب الثلاثة بالذات لما رأيته فيها من نظرة جديدة إلى محمد والإسلام. نظرة ملؤها الاكبار الصادر عن فكر حر لا عن تعصب أعمى. ان الناس لم تعد تعني بتلك الكتب المفعمة بالثناء الأجوف والألقاب الطويلة يحاط بها اسم النبي، وهو في عظمته أجل من أن يحتاج إليها. إنما تريد الناس اليوم حقيقة مجردة ناصعة هي في تجردها أجمل وأسمى وأبلغ في النفوذ إلى القلوب، وهذا ما صنع هيكل بك في كتابه (حياة

محمد) على نحو خليق بالثناء، فلقد أسقط من حياة النبي تلك المعجزات التي لا تغني من الحق شيئاً ما دمنا في مجال التدليل العقلي، وأظهر شخصية النبي عظيمة في بشريتها السامية، وأبان عن غرض النبي والدعوة إلى دين جوهره اقتناع النفس بالحقيقة العليا. ان هذه النظرة الجديدة فيها إجلال للنبوة. وان أولئك السفهاء الذين كانوا يطلبون إلى الأنبياء أن يثبتوا نبوتهم بالمعجزات قد أثموا في حق الفكر البشري قبل أن يأثموا في حق الدين.

ان المعجزة: أي الإتيان بعمل خارق للمعتاد لا يدل على شيء ولا يثبت نبوة ولا يدحضها. فان من الكهان أو بسطاء الناس من يملكون أحياناً تلك القوى الخارقة في أجسامهم أو عقولهم أو أرواحهم دون أن يكونوا من أجل ذلك أنبياء. إن النبي ليس في حاجة إلى معجزة كي يكون نبياً. إنما النبي من حمل رسالة علوية لا ينصرف عن الحياة

بغير ذلك، فقد بلغهم رسالته واعتمد في إثباتها على العقل المجرد.

ولقد جاء في كتاب هيكل بك: (لما جهد المسلمون عطشاً أثناء مسيرة جيش العسرة إلى غزوة تبوك ثم أمطرتهم السماء ذهب بعضهم إليه (إلى النبي) يقول إنها معجزة، فكان جوابه: (إنما هي سحابة مارة)؛ ولما كسفت الشمس يوم اختار الله ابنه إبراهيم إلى جواره قال الناس: (إن هذا الكسوف معجزة) فكان جوابه: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته) هذا جواب محمد الذي قيل إنه نبي كاذب!!! فهل يمكن أن يكون هذا جواب نبي كاذب؟؟

ان في كتاب هيكل صفحات تصلح رداً بليغاً على فولتير. إن محمداً هو أعظم من فهم حقيقة النبوة، ووعى معنى الحقيقة العليا، وأدرك أن أكبر معجزة في هذا الكون هي انه لا يوجد في الكون معجزات، وأن كل شيء يسير

طبقاً لنظام دقيق. وإذا قيل نظام قيل قانون، وإذا قيل قانون قيل عقل مدبر، وهذا العقل واحد أحد تبدو سعته في إدارة الأجسام غير المحدودة في الصغر، ذات اليد العلوية وعين أثرها في كل شيء، يد واحدة لا تتغير وقانون واحد لا يتغير. إن محمداً كما يبدو في وصف الدكتور هيكل قد تأمل الطبيعة كثيراً، وفكر ملياً في نظامها العجيب فكشف عن بصيرته وبصره فامتلأ قلبه بالله، كما اقتنع عقله بوجوده، فجاء دينه ديناً كاملاً، صادقا في نظر القلب والعقل معاً. ولئن كان على الأرض نبي أحب العلم، ولم يخش دينه العلم، ولم يضطهد العلماء، فهو (محمد) الذي قال: (فضل العلم خير من فضل العبادة) (اطلب العلم ولو في الصين) وكثيراً من الأحاديث التي تثني على العلم وتحض عليه. ذلك أن مصدر اقتناع العلم ومصدر اقتناع محمد واحد: الكون وملاحظة ما فيه من إبداع ينم عن يد الخلاق العظيم.

في كتاب حديث العالم انشتين فصل ذكر فيه رأيه في الدين، قال إنه يعتنق ما يسميه (الديانة الكونية) تلك الديانة التي تملأ قلب كل عالم انقطع لتأمل (ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة وما يخفي من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه لما كونت غير شعاع ضئيل أقرب القول فيه انه لا شيء).

لا ريب عندي أن إحساس انشتين نحو الكون والله هو عين إحساس محمد يوم كان يتحنث في غار حراء قبل نزول الوحي. لنما الأنبياء والعلماء قلوب واعية تشعر بجلال الله. ولا يمكن لنبي أن يكون نبياً إلا أن يشعر من تلقاء نفسه بعظمة الخليقة ويتحرق شوقاً إلى معرفة صانعيها، ولا يزال الشوق بقلبه حتى يكشف له الصانع الأعظم عن بعض نوره، ويوحي إليه بنشر هذا النور على الإنسانية. أني كلما تأملت شخصية محمد مجردة ثبت إيماني بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها في الحقيقة

وجود، وان الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق. . . بل إن الدين والعلم شيء واحد، كلاهما يطلب نور الله ويريد وجه، وكلاهما يعي ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدة قوانينه ودلالة وحدة الوجود على وحدة الخالق. ولم يظهر نبي حق ولا عالم حتى شعر بغير ذلك. إنما الفارق بين العلم والدين في السبل التي يسلكها كل في الدنو من الله. ومن قال إن وسائل العلم ينبغي أن تماثل وسائل الفن أو وسائل الدين؟؟؟

إن الطرائق والسبل يجب أن تظل مختلفة مميزة لا يختلط بعضها ببعض، إنما المصدر واحد دائماً والغاية واحدة. فما الدين والعلم والفن إلا خيوط ثلاثة كتب على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها لتهتدي إلى ذلك النور الذي لا بداية له ولا نهاية: الله

إن الإسلام وهو أحدث الأديان، وهو الذي لم يخاصم العلم، وهو الذي أتسع صدره لكل شيء يصلح فيما يرى

الدكتور هيكل لمعالجة أزمات العالم الحاضر، الروحية والاجتماعية والاقتصادية. وهو رأي صادق إذا قيض الله للإسلام رجالاً ذوي نظرة وذهن مستنير واطلاع واسع، يبرزون فضائله بأساليب جديدة، ويتولون إذاعته والدفاع عنه بأقلام ذكية قديرة. ولقد صنع هيكل كثيراً في هذا السبيل بأسلوبه الجديد في (حياة محمد). ولئن كان قد أثم في دنياه فلقد اشترى بكتابه آثامه!!! ولسوف يتقدم يوم الدين وكتابه بيمينه يشفع له في دخول الجنة!!! ولسوف يدخلها بأذن الله متأبطا ذراع طه حسين بما قدمت يمناه هو أيضاً من كتاب أدبي جميل (على هامش السيرة)، كان له ولا ريب الأثر في حمل الناس على استمراء أخبار النبي، ولهما بعد ذلك ولأمثالهما ممن دافعوا ويدافعون عن الإسلام خير التحية: فإني قلتها وأقولها دائماً: ليس الأمر أمر عقيدة وديانة، إنما هو إلى جانب هذا أمر حياة تلك

الكتلة التي يسميها الغربيون: الشرق. وما الدفاع عن الإسلام إلا الدفاع عن الشرق.

obeikandl.com

منطقة الإيمان

حينما كنت وكيلاً للنائب العام كنت أرى عجباً في قاعات المحاكم وجلسات التحقيق؛ وكنت أفكر كثيراً في أمر ذلك الشرير الذي طالعت صحيفة حياته فإذا آثام ودماء تسيل منها، ومع ذلك يقف أمامي متطلعاً إلى السماء، ويأبى أن يقسم بالمصحف كذبا. هذا الآدمي قد انطلقت غرائزه الدنيا لا يقوم لها شيء، لكن بقيت برغم هذا في نفسه منطقة عذراء لم يتطرق إليها فساد: منطقة العقيدة! أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والغريزة؟ كذلك كان يدهشني أمر صديق من خيرة القضاة، كثير الورع، حريص على العبادة والصلاة؛ ومع ذلك بقي عقله حراً من كل قيد. ما يدور بيننا حديث في الخالق والخليقة حتى يذهب هو في التدليل والمنطق كل مذهب إلى أن يقع في الإلحاد وإنكار الجنة والنار. وينادي المؤذن

بالصلاة فإذا القاضي يسرع مخلصاً إلى ذلك الدين الذي قال فيه منذ لحظة قولاً عظيما . أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والعقل؟

إذا قلنا مع القائلين إن العقل والقلب والغريزة ملكات ثلاث منفصلة إحداها عن الأخرى، فإن هذا القول يؤدي حتما إلى نتائج غريبة قد تعدل من نظرتنا إلى الأشياء . ولعل أول ما يفهم من هذا الاستقلال بين ملكات تباين ألوان الحقيقة لدى كل منها؛ فما يصدق عند القلب، قد لا يصدق عند العقل. بل إن كل ملكة من تلك الملكات تسيطر على عالم مختلف جد الاختلاف عن عالم الأخرى. يقابل ذلك في المحسوسات تلك الحدود والحواجز بين الحواس، فعالم البصر منفصل عن عالم السمع، والحقيقة البصرية غير الحقيقة السمعية، وما يعتبر موجوداً في منطقة العين لا يعتبر موجوداً في منطقة الأذن، فهذا الحجر الساكن حقيقةٌ تراها العين المبصرة، ولكن

الأذن لا تدرك ولن تدرك هذه الحقيقة، ولن تعرف مطلقاً ما هو الحجر وما شكله، لأن عالمها وهو عالم الأصوات لا يخطر له على بال أن في الوجود عالما يسمى عالم المرئيات. فالعقل لا يدرك إلا ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه. والحقيقة العقلية ليست الحقيقة المطلقة، وليست الحقيقة كلها. ولكنها الحقيقة التي يستطيع العقل أن يراها من زاويته. فإذا كانت العقيدة مرجعها القلب، فإن العقل لن يرى منها إلا الشطر الذي يستطيع أن يراه، ويظل محجوبا عنه الشطر الواقع في دائرة القلب.

فوجود الخالق الجبار المنتقم الرحمن اللطيف لاشك فيه عنه القلب؛ أما العقل فإن استطاع بالمنطق أن يتصور وجود الخالق، فأنه قد يرتاب في صحة تلك الصفات المنسوبة إليه؛ وقد يراها في منطقة صفات آدمية أسبغها البشر على خالقهم إجلالاً له، لأنهم وهم بشر لا يملكون غير تلك الصفات التي هي في عرفهم مرادف الإكبار

والتقدير. أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل، وهل يستطيع الجزء أن يرى الكل؟ هل تستطيع الكبد في جسم الإنسان مثلاً أن تحيط إدراكاً بحقيقة شكل الإنسان الخارجي وهي جزء منه داخل فيه؟ إن كل ما تدركه الكبد هو وجود تلك المواد التي تمر بها كل يوم فتحولها إلى إفرازات دون أن تدري من أين جاءت، ولا إلى أين تذهب. العقل أيضاً يرى الأحياء كل يوم تدور دورتها دون أن يدري من أين جاءت ولا إلى أين تذهب. فالحقيقة العقلية أو العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التي تمر بالحواس؛ ومن يحمل العقل أكثر من قدرته فهو إنما يريد منه المستحيل، كمن يطلب إلى الكبد مضغ الطعام. فالحقيقة العقلية أو العلمية شيء، والحقيقة الاحساسية أو الدينية شيء آخر؛ وإن رجال الدين يقعون دائماً في الخطأ، إذ يبسمون بسمة الظفر كلما قال رجال العلم قولاً يتفق مع الدين، ويقطبون تقطيب الغضب كلما نقض

رجال العلم أسس الدين. وما أحراهم في كلتا الحالين أن يبسموا غير مكترثين بسمة الصفاء واليقين، وأن يعتقدوا تمام الاعتقاد أن العلم في كلا الحالين كاذب عندهم وإن صدق، وأن لا شأن للعلم بهم، وأن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه، وأن العقل يستطيع أن يهدم الدين كما يشاء دون أن يسمع القلب طرقة واحدة من طرقات معوله، وأن أولئك الملحدين الذين سخروا عقولهم الكبيرة لتفنيد الدين وهدم أصوله والشك والتشكيك في جوهره ووجوده، لم يستطيعوا لحظة واحدة أن يسكتوا صرخات القلب الحارة الصاعدة إلى ذلك الموجود الأسمى الذي بيده نفوسهم. إن عقولهم كانت ترغى وتزبد بالكلام المعقول والمنقول، وقلوبهم في معزل عن كل هذا الصخب، لا تشعر ولا تدري شيئاً عن المعركة الحامية القائمة في تلك الرؤوس. فالتوفيق بين العلم والدين ضرب من العبث. على أن اجتهاد

المجتهدين في هذا السبيل لم يتعدى ذلك الجانب من الدين الخاضع بطبيعته لحكم العقل، وهو الجانب الاجتماعي المبني على الأخلاق وما يتفرع عنه من فكرة الفضيلة والرذيلة. . .

وهنا يتساءل الناس دائماً: ما الدين؟ أهو شيء مفيد للبشر في أمر حياتهم ومعاشهم؟ أم إنه طريق لحل اللغز الأكبر وسبيل للنفوذ إلى المجهول؟. في الواقع أن كل دين من الأديان المعروفة يتكون من هذين الوجهين. فالدين كقانون اجتماعي ينظم الغرائز ويحفظ التوازن بين الخير والشر، هو أمر متعلق بذات الإنسان، متصل إذن بعقله وعلمه. على أن عنصر (الأخلاق) في الأديان ليس كل جوهرها. فإن بعض البلاد قد استطاعت أن تجد في (الأخلاق) غنى لها عن (الأديان)؛ إنما قوة الدين وحقيقته في العقيدة والإيمان (بالذات الأزلية). هنا لا سبيل إلى الدنو من تلك (الذات) إلا عن طريق يقصر عنه العلم

الإنساني، بل يقصر عنه كل علم، لأن العلم معناه الإحاطة، والذات الأبدية لا يمكن أن يحيط بها محيط، لأنها غير متناهية الوجود. فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل. هاهنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر. إني ما كتبت هذه الكلمة اليوم إلا لألفت نظر رجال الدين إلى وجوب التسامح والهدوء كلما قام باحث يتكلم في الدين عن طريق العقل، فإن الشرق اليوم مقبل على حياة علمية واسعة مهادها المعاهد والجامعات؛ ولابد لنماء ملكة العقل من التفكير الحر الطليق، كما لا بد لحياة ملكة القلب من الشعور الحار العميق. فليترك رجال الدين المفكرون يفكرون كما يشاءون، ويثرثرون كما يريدون، ويعرضون بضاعتهم الكلامية التي هي كلها بهرجهم الآدمي الأجوف، فإن كل هذا الضجيج العقلي لن يصل خبره إلى القلب الذي لا يفتر لحظة عن التسبيح رغماً عنهم بالعقيدة التي ركبت عليها حياته النابضة. . .

نجم أحمد!

وقف اليهودي على أحد آطام يثرب ناظر إلى السماء يعلن إلى بني قومه ميلاد النبي في صيحة مدوية: طلع الليلة نجم أحمد! عجبا من العجب! أحقاً لم ير ذلك اليهودي نجم أحمد قبل تلك الليلة؟ يخيل إلي أن الناس في ذلك الزمان كانوا يسيرون مطرقين كالعميان. إن نجم أحمد طالع في كل لحظة يشع نورا من بداية الكون لو أن للكون بداية، إلى نهاية الزمن لو أن للزمن نهاية. نجم أحمد هو الحق. والحق لا يبدأ ولا ينتهي. ولا يظهر ولا يختفي. أنه موجود

إذن ما الإسلام؟ وكيف ظهر الإسلام بظهور محمد، والمسيحية بظهور المسيح؛ واليهودية بظهور موسى؟ هنا لزم التفريق بين الحق وثوب الحق. بين المعنى والأسلوب. ما الإسلام إلا أسلوب من أساليب الحق. ورداء من أرديته. كذلك المسيحية وكذلك اليهودية. وكذلك كل

دين من تلك الأديان السماوية التي تتحد في الجوهر وتختلف في المظهر: وهنا نستطيع أن نفاضل بين الأساليب؛ وهنا فقط يجوز لنا أن نفاخر بالدين الأخير، إذ جاء بأسلوب جامع مانع، سهل ممتنع، محكم الوضع، مصقول التراكيب. فالمفاضلة لا تكون في الجوهر، لأنه واحد أحد؛ إنما المفاضلة في الأثواب

وهنا يخطر على البال سؤال: هل تجوز المفاضلة بين الأثواب وهي كلها من صنع الخالق المعصوم الذي لا ينبغي أن يخطئ ولا أن يصحح ما سبق أن صدر عنه. أو أن جوهر الحق وحده من شان الله، أما الأسلوب الذي يعرض به على الناس فهو من شأن الرسل والأنبياء؟ قبل الإجابة على هذا السؤال يجب النظر في قضية أخرى: هل للطبع والمزاج والخلق الذي ركب عليه النبي أو الرسول أثر في أسلوب رسالته؟ هل شخصية الرسول تطبع بخاتمها شكل الدين الذي يدعو إليه؟ وهل لظروف العيش التي

نشأ عليها النبي دخل في اتخاذ (القالب) الذي أفرغ فيه (موضوع) النبوة؟ إن أجب على كل هذا بالإيجاب فإن التبعة في (أسلوب) الأديان تقع بلا مراء على كاهل الأنبياء. والنبي إذن مسئول عن الطريق الذي اتبعه للإبانة عن (الحق) مسئولية ملقاة على (شخصيته) التي صبغت الشريعة بصبغتها. وعلى قدر المسئولية تكون العظمة؛ وعلى قدر (الشخصية) ذات الوجود الفعلي تقاس العبقرية العظمة والمجد الأسمى.

إن صح هذا الكلام فإني أستطيع القول إن النبي أو الرسول لا يصل إلى الحق متجرداً عن شخصيته، بل إنه لا يستطيع الدنو من الحق إلا عن طريق شخصيته. كذلك فعل النبي العربي، وكذلك فعل المسيح وموسى. وكذلك كل نبي لا يستطع أن يرى الحق إلا عن طريق إحساسه وطبعه وعقله، وهي ملكات تختلف باختلاف الأشخاص. وهنا يبدو سر تباين الأساليب التي جرت

عليها الأديان في عرض جوهر الحق على الناس. ولعل محمداً هو أكثر الأنبياء حرصاً على تنبيه الناس في كل مناسبة إلى وجود شخصيته المستقلة، فهو لا يفتر يذكرهم أنه بشر خاضع للقوانين التي يخضع لها البشر، وأنه لا يتصل بالله هذا الاتصال الخاص الذي قصر على الرسل إلا إذ يشاء الله. وأنه في كثير من حياته الخاصة أو العامة حيث لا وحي يهديه السبيل، يتصرف كما يتصرف البشر. هكذا فعل في معارك بدر وأحد والخندق إذ كان يستمع إلى مشورة أصحاب الرأي من رجاله. وهكذا فعل إذ لم يخف ميله إلى الطيب والنساء. بل إنه أعلن ذلك الميل لعلمه أن الميول من مميزات الطبع التي ركبها الخالق في البشر. والنبي الحق أجل من أن يكتم مزاجاً أو طبعاً، وهو يعرف أن المزاج والطبع من مقومات الشخصية.

وهنا تبدو حكمة الإسلام ظاهرة بين سائر الأديان. فهو دين بسيط فطري لم تدخله صناعة. كل شيء فيه

صادق خالص صاف، ليس فيه إنكار لقوانين الطبيعة، بل فيه مسايرة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوي على البشر من حيث تركيبهم المادي والمعنوي. ذلك أن أسلوب محمد في إدراك (الحق) كان أسلوباً مستقيما. فهو قد أدرك أن (معنى) الحق إنما هو (السبب) الذي يصدر عنه الناموس الأكبر، وأن روح الوجود هو (النظام) إذ لا يتصور أن تكون (الفوضى) من عناصر الخليقة. بل أن (الفوضى) إذا حلت في نظام الوجود انقلبت نظاماً، لأنه لا وجود بلا نظام؛ بل إن كلمة (الفوضى) لا محل لها إلا في أدمغة البشر يعبرون بها عن كل ما يحدث شيئا من الخلل في ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة. أما الكون غير المتناهي فلا يعرف غير النظام، هذا النظام الذي فرض على الإنسان والحيوان والجماد. هل من سبيل إلى مخالفته؟ إن مخالفة النظام الطبيعي للإنسان والأشياء مخالفة لله؛ وكل دين يقف في وجه النظم الطبيعية

لا يمكن أن يكون من عند الله، لأن الله لا يناقض نفسه. كل هذا فهمه محمد ووعاه ببصيرته النورانية النافذة، فجاء أسلوب الإسلام في الإفصاح عن (الحق) واضحاً جلياً؛ لا يأمر بالرهبنة، ولا بالفرار من الدنيا، ولا بتعذيب الجسد من أجل الله لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه

إنما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقاً لقوانين الحياة التي وضعها لها، وأن تجاهد في سبيل هذه الحياة، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأه لها من مناعة طبيعية، أو مناعة اكتسابية. والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية

فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة، فإن الإسلام بلا مراء هو دين الصحة في كل شيء. فهو ذو صوت جهير في الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة. ولئن كان ماضي هذا الدين السليم

مجيدا، فإن مستقبله ولا ريب يبشر بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين، وننقيه من ثرثرة المتنطعين، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين، وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية التي لا تصدم تقدما ولا تعارض التطور الطبيعي للأذهان والأشياء. وقتئذ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول. فإن الدين (المثالي) هو الدين البسيط. وهل أبسط من الإسلام شريعة وهي لا تعرف (رجال دين) ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكنزون، ومن (الدين) مهنة تدر الرزق وتعطي متاع (لدنيا)؟ إن أولئك الذين يجعلون (الدين) سلما (للدنيا) لا (الدنيا) سلما (للدين) قد طردهم الإسلام بعيدا عن حظيرته، وجعل الدين سمحا باسما باسطا ذراعيه لكل الناس لا احتراف فيه ولا احتكار. نعم، إن حاجة البشر كافة قد أصبحت متجهة إلى هذا النمير العلوي الصافي من المبادئ البسيطة المستقيمة

التي لا خـداع فيهـا ولا تمويـه ولا تنـاقض ولا تشـويه ولا إخلال ولا تدخل في قوانين الطبيعة الأساسية التي وضـعها المبدع الأعظم. إذا تم ذلك للإسلام في هذا العصر فلسوف يأتي يوم يقف فيه أهل الأرض أجمعون من كل جنس ولون على آطام بلادهـم يصـيحون في كـل حـول صـيحة ذلـك اليهودي:

(لقد طلع نجم أحمد!)

obeikandl.com

سِرُ العَظَمة

ينبغي لمن أراد أن يدرك سر عظمة النبي أن يتخيل رجلاً وحيداً فقيراً تمكنت من قلبه عقيدة فنظر حوله فإذا الناس كلهم في جانب، وإذا هو بمفرده في جانب. هو وحده الذي يدين بدين جديد، بينما الدنيا كلها: أهله وعشيرته، وبلده وأمته، والفرس والروم والهند والصين وكل شعوب الأرض لا يرون ما يرى، ولا يشعرون له بوجود. هذا موقف النبي، وهذا موقف العالم: رجل عاطل من كل قوة وسلاح، إلا مضاء العزيمة وصلابة الإيمان، أمام عالم تدعمه قوة العدد والعدة، وتؤازره حرارة عقيدة قديمة شب عليها وورثها عن أسلافه، واتخذت لها في قرارة نفسه وأعماق تاريخه جذوراً ليس من السهل اقتلاعها على أول قادم. فالنبي هو ذلك القادم الذي يريد أن يقتلع تلك الجذور ويضع مكانها غرساً

جديداً. والعالم القديم هو ذلك السادن القوي لتلك الشجرة العتيدة، يذود عنها وتأبى كرامته أن يفرط في ورقة منها. إنها إذن (مبارزة) بين فرد أعزل، وبين عصر بأسره يزمجر غضباً: عصر زاخر بأسلحته ورجاله، وعقائده وفقهائه، وعلمائه ومشاهيره، وتقاليده وماضيه، ومجده وتاريخه. . . هذه المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع أن يقدم عليها غير النبي. . . على أن المعجزة بعد ذلك ليست في مجرد التحدي ورمي (القفاز) وارتفاع ذلك الصوت الضعيف على شاطئ ذلك البحر الطامي العجاج: (أن اترك أيها العالم دينك القديم واتبعني). ذلك الصوت الذي لا جواب عليه إلا سخرية طويلة وقهقهة عريضة. . . وليست المعجزة كذلك في مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعمى، إنما المعجزة حقيقة هي أن يخرج مثل هذا الرجل الوحيد الأعزل من هذه المعركة المخيفة ظافراً منتصراً؛ فإذا هذا العالم العتيد كله يجثو عند

قدميه منكس الأسلحة، وقد انقلبت سخريته خشوعاً طويلاً، وقهقهته صلاة عميقة كيف ربح هذا الرجل الموقعة؟ ما وسائله؟ هل كانت له خطط وأساليب وقوة من شخصه مكنته من النصر؟ أو أن الله هو الذي نصره دون أن يكون لشخصية النبي دخل في الانتصار؟ عقيدتي دائماً أن شخصية النبي لها أثر كبير

وهنا معنى الاصطفاء، فالله يختار من بين البشر عظيماً له كاهل يحتمل عبء الرسالة، ويوحي إليه بالعقيدة ثم يتركه يجاهد في سبيلها. فالنبي ليس آلة تحركها يد الله في كل خطوة؛ إنما هو رسول عهد إليه تبليغ دين والعمل على إذاعته بين الناس بالوسائل التي يراها الرسول كفيلة ببلوغ الغاية. فالله لا يريد نشر الأديان بين البشر إلا بالوسائل البشرية. فهو لا يتدخل بقدرته العلوية فيفرض الدين فرضاً على الناس كما تفرض عليهم الزوابع والأمطار؛ ولكنه يحب دائماً أن يخلي بين (الدين) وبين

(الناس) حتى يتغلغل الدين من تلقاء نفسه في نفوسهم بجمال نوره وحده؛ ولكن أعين الناس لا ترى في كل الأحيان؛ فهم يعيشون في أعماق ماضيهم كالأسماك العمياء في أغوار المحيطات. هنا تبدأ متاعب النبي؛ وهنا تبدو عظمته؛ وهنا تظهر المعجزة الحقيقية وهي إبراء الأعمى، لا أعمى واحد ولكن ملايين العميان. فهو الذي يفتح أبصارهم على نور طالما جحدوا وجوده: نور الدين الجديد الذي أتى به. وهنا ينبغي التساؤل: كيف استطاع النبي أن يُري الناس ما يَرى، وأن يقنعهم بما جاء به؟. الجواب بسيط: حياة النبي وخلقه. إن الناس لا تقتنع بالكلام وحده. إنما يؤثر فيها الفعل والمثل. إن الناس يوم أيقنوا أن محمداً لا يسعى إلى غنى ولا إلى مُلك؛ وأنه يريد أن يبقى فقيراً يشبع يوماً ويجوع أياماً، وأن كل تلك المخاطر التي يتعرض لها في كل خطوة، وأن كل ذلك الهوان الذي يناله من سفهاء القوم وأكابرهم. . . وأن

كل ذلك الجهاد الذي ملأ به حياته بأكملها إنما هو في سبيل (العقيدة) التي يقول لهم عنها؛ منذ ذلك اليوم الذي اجتمع فيه كبراء أمته وعرضوا عليه ثروتهم ووعدوه أن ينصبوه عليهم ملكاً على شرط أن يتركهم على دين آبائهم، فرفض المال والمجد والسلطان، وأبى إلا شيئاً واحداً صغيراً: (أن يؤمنوا معه بفكرته)؛ عند ذاك أدرك أولئك القوم جميعاً أن الأمر جد لا هزل؛ وأنهم أمام رجل لا ككل الرجال؛ وأن الآدمي الذي لا يغريه في الحياة شيء، ولا يعيش إلا من أجل فكرة، لابد أن يكون قد أبصر في هذه الفكرة جمالاً لم يبصروه هم. (فكرة) لا تقوَّم بمتاع من أمتعة هذه الدنيا الرخيصة، و (جمال) يضحي في سبيله خير ما في الحياة. أمام هذا الرجل أخذ الناس يفكرون ملياً. وثبت لمن كان قد ارتاب في أمره أن مثله لا يمكن على الأقل أن يكون أفاقاً يعمل لمغنم. إنما هو رجل صادق مخلص، لا مطمع له من تلك المطامع التي يسعى

إليها الناس في هذه الدار. عند ذاك بدأ كثير من الناس يجلسون إليه ويصغون إلى كلامه. . . فوسيلة النبي الأولى وخطوته التي نزل بها الميدان هي إقناع هذا الخضم الصاخب من الخلق أنه مجرد عن الغايات الدنيوية. وهنا كانت قوته؛ فإن أمضى سلاح في يد رجل يريد أن يقارع البشر، هو أن يواجه البشر بيد خالية من أغراض البشر

ولكن هذا لا يكفي. فالناس قد تقتنع بأمانة النبي، وقد تستمع إلى ما يقول، ولكنها لا تستطيع أن تنبذ في يوم وليلة كل ماضيها لتؤمن بهذا الكلام الجديد. إن صدر الجماهير كصدر المحيط العميق ذي الماء الكثيف، يدفع إلى سطحه كل جسم غريب، ولا ينفذ إلى أعماقه إلا شيء ذو وزن، بعد زمن وجهد. وإن الناس لشديدة الحرص على ما تسميه كنوز تراثها وتقاليدها. فما أدراهم أن هذا الكلام الجميل الذي جاء به هذا النبي ذو الحديث الطلي ليس إلا بضاعة زائفة ووهماً خلاباً لعب بلب هذا الرجل؟

ولم لا يكون هذا الرجل الأمين المسكين فريسة مرض ومس؟ ما هو الأجدر بهم عندئذ؟ يطلبون له الطب حتى يبرأ، أو يلقون بكنوزهم ويتبعون حلمه ومسه. لقد وضعت المسألة إذن وضعاً آخر، واتخذت الحرب ميداناً جديداً. ماذا يصنع النبي؟ لابد له من أن يبدد ضباب الشك المخيم على الأذهان حتى يصل إليها نور الدين. هنا صفتان لازمتان: الصبر والمثابرة، فإن العاقبة في الحرب لمن صبر وثابر. وإن أمامه لخصماً جديداً، هو الشك الذي يقوم الآن في رؤوس الناس. فإن كان حقيقة رجلاً عظيماً فليقتل هذا الشك بمفرده. وما هو بشك رجل واحد، إنما هو شك أمة طامية. ولقد جاهد الرسول فعلاً في كل لحظة من لحظات حياته، إلى أن استطاع ذات يوم أن ينقل العقيدة التي في قلبه حارة قوية إلى قلوب الناس جميعاً. وهنا كان النصر الأخير، وتمت المعجزة. وتمكن هذا الرجل الواحد من أن يضع العالم في قبضته، ويخضعه

لفكرته، ويطبعه إلى أبد الآبدين بخاتمه، ويدخل إلى صدره أشعة نور جديد.

obeikandl.com

المرأة في شباب الرسول

لم يرو لنا التاريخ أن النبي عرف امرأة أو تحرك قلبه لامرأة قبل خديجة. فلقد كانت حياته حتى الخامسة والعشرين حياة الشاب الهادئ البعيد عن النساء، العاكف على عمله، يرعى الغنم في الفلاة ويلجأ إلى التأمل العميق. فلم يكن للهو والمرأة حتى ذلك الوقت مكان من اهتمامه أو تفكيره. كل ما ورد مع ذلك من أخبار لهو الشباب أنه قال ذات ليلة لفتى من قريش كان معه بأعلى مكة يرعيان غنم أهلها: (أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان). ثم خرج. فلما جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناء وصوت دفوف ومزامير، فجلس يلهو بذلك الصوت حتى غلبه النعاس فنام في مكانه ولم يوقظه إلا مس الشمس. فرجع إلى صاحبه

فسأله : (ما فعلت؟) فأخبره بما كان . وكـان هـذا شـأنه في كل ليلة من مثل هذه الليالي

كانت العفة المطلقـة إذن هـي صـفته الغالبـة ؛ وكانـت الزهد والحلم والصبر والتواضع ما ميزه عن بقية الشـبان، وما جعل قومه يسمونه (الأمين) .

ما الذي كان يشغل رأس الشاب محمـد في تلـك السـن مادام اللهو والمرأة لا محل لهما عنـده؟ أتـراه كـان يحـس في قرارة نفسه بمصيره العظيم؟ نعم .

ولعل هذه الفكرة تملكت كيانه وطغت على كل شـبابه فلم تتسع حياته في ذلك الوقت لشيء آخر .

لقد كان هذا دائماً شأن أغلب أولئك الـذين انتظـرتهم أقدار عظام، وتملكتهم منذ شـبابهم مثـل عليـا وأحـلام، عمرت كل أعوام شبابهم وحلت فيها محل اللهو والمرح .

إن كل شاب يعيش مع شبح امرأة جميلة إلا الشاب الموعود برسالة عظمى فهو يعيش دائماً مع شبح المجد المنتظر.

لعل هذا يفسر لنا بعض الشيء حياة الفتى محمد حتى الوقت الذي لقي فيه أول امرأة أحبها (خديجة). وإنّا لو تأملنا الأمر ملياً لتبين لنا أنه لم يكن البادئ بالحب. كل شيء يدل على أن الزواج لم يخطر له على بال، والزوجة والمرأة آخر ما كان يفكر فيه وقتئذ، فلقد كان يسير في طريق تأملاته الداخلية وأحلامه العليا، وكأنه لا يمشي على هذه الأرض إلى أن لحظته خديجة ذات يوم ولمست كتفه فأفاق قليلاً ورفع عينيه إليها.

نعم. إنها هي التي كانت ترقبه منذ زمن؛ وأن لشعورها نحوه جذوراً ممتدة في أغوار قلبها، امتداد عرق الذهب في المنجم العميق. ما مبدأ هذا الشعور؟ لعله ذلك اليوم الذي احتفلت فيه نساء قريش بعيد لهن، وكانت

خديجة بينهن عند وثن من الأوثان فبرز لهن أحد اليهود ونادى بأعلى صوته: يا نساء تيماء! إنه سيكون في بلدكن نبي يقالا له محمد، فأيما امرأة استطاعت أن تكون له زوجاً فلتفعل!) فقذفته النساء بالحجارة وقبحنه وأغلظن له، إلا خديجة فأنها أطرقت وكأن شيئاً وقع في نفسها من كلامه.

ثم حدث بعد ذلك أن خديجة ـ وقد كانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام وتستأجر من أجلها الرجال ـ أرسلت الشاب (محمداً) في تجارتها وضاعفت له الأجر وأرسلت معه غلامها ميسرة، فعاد رابحاً ضعف ما كان تربح التجارة على يد غيره، لأمانته واجتهاده

وقص عليها عندئذ غلامها (ميسرة) وقد راقب محمداً في رحلته ما رآه من خلق هذا الشاب المستقيم الأمين، ولعله أخبرها فيما أخبر أن أحد الرهبان قابله، وأنهما تذاكرا ملياً في أمر النبي الموعود المسمى (محمد) كل هذا مع ما تشبعت به الأذهان من أساطير النبوة المنتظرة قد ألقى في

روع خديجة أنها أمام شاب لا يبعد أن يكون هو النبي الموعود.

فإذا أضفنا إلى كل هذا أن محمداً كان فتى في الخامسة والعشرين كريم الخلق جميل المنظر، وأن خديجة كانت امرأة في الأربعين، أدركنا أن مثلها كان لابد له أن يحب مثله. وهل يمكن أن يسمى هذا الشعور باسم آخر غير (الحب)؟ ذلك الذي يدفع امرأة ذات شرف وثروة أن تبدأ هي الخطوة الأولى نحو فتى فقير يتيم؟ هي التي قد تقدم إليها أكرم رجال قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، طلبوها وبذلوا لها الأموال فلم تلفت إليهم، وأرسلت تابعتها (نفيسة) دسيساً إلى الشاب محمد تعرض عليه يدها.

منبع الحب إذن كان قلب (خديجة)، ولقد كان هذا الحب سامياً قوياً عظيماً فاستطاع أن يفتح قلب محمد وأن يملأه كل تلك الأعوام التي عاشتها خديجة، بل إن الحب

لم ينطفئ بموت خديجة، ولقد ظل مكانها من قلبه قائماً دائماً لم تستطع قط امرأة أن تزاحمها فيه.

هذا هو حب محمد الأول، وتلك ناحية من نواحي الفضل المجهولة لم يذكرها الناس كثيراً لخديجة بما هي أهله من التكريم والتمجيد.

obeikandl.com

عدو إبليس

(عزرائيل ينصرف عن دار النبي بعد وفاته فيرى إبليس مقبلاً

فرحاً مبتهجاً . . .)

إبليس ـ هل قبضت روحه؟

عزرائيل ـ وما شأنك وهذا، أخزاك الله؟

إبليس ـ نعم، نعم، لقد مات. أليس هذا صوت ابنته فاطمة تبكي وتصيح: (أبتاه، أبتاه. أجاب رباً دعاه! جنة الفردوس مأواه! يا أبتاه إلى جبريل ننعاه!)

عزرائيل ـ وما يعنيك من هذا الأمر؟

إبليس ـ أو ليس هذا أيضاً صوت عائشة في بكاء وشهيق:

(واحر قلباه! وا مصيبتاه! الآن قد انقطع عنا خبر الزمان!)

عزرائيل ـ أغرب عن هذا المكان!

إبليس ـ ثم هاهو ذا صوت نسائه كلهن يبكين:

(واثكلاه! واثكلاه!)

عزرائيل ـ أغرب عن هذا المكان!

إبليس ـ ما أجمل هذا النهار. . . إن نفسي لتكاد تنفجر شعراً وغناء. اصغ إلى هذه الأغنية:

ذهب عدوي إلى الفناء

اليوم عيدي فإلى الغناء

عزرائيل ـ صه! قبحك الله وقبح صوتك!

إبليس ـ صوتي منذ اليوم يستطيع أن ينطلق حراً في أرجاء الأرض. صوتي منذ الآن يستطيع أن ينفذ إلى تلك القلوب التي كانت تميل عني لتلقى خبر السماء. لقد عاد إلي ملك الأرض من جديد. . . وا فرحتاه! وا فرحتاه!

عزرائيل ـ خسأت! أن نور السماء قد نفذ إلى قلوب الناس فهيهات بعد اليوم أن يصغوا إلى صوتك!

إبليس ـ إنك لا تعرف الناس مثلما أعرفهم. إني أعرف كيف أمر بأناملي مراً رقيقاً على أوتار قلوبهم، فيذهلون، وأغني بصوتي هذا غناء شجياً فيطربون. . . إنك لا تعرف ما هي الأغاني التي أغنيها لهم. أني أغنيهم أغاني الأرض لا أغاني السماء! إن السماء تنير قلوبهم حقيقة. . . ولكن لأجل قريب. لا تنس أنهم خلقوا من طين الأرض. لاشيء يهز كيانهم غير أغاني الأرض!

عزرائيل ـ إنهم من الأرض ولكن أعينهم تتطلع إلى السماء

إبليس ـ نعم، عندما يشير لهم إليها النبي بإصبعه، فإذا ولى. . . عادت رؤوسهم تنخفض نحو الأرض. إنهم كالسنبلة التي لا يرفعها غير الإصبع، فإذا تركت سقطت

عزرائيل (كالمخاطب لنفسه) ـ عجباً! ولماذا إذن رضي الله أن يقبض نبيه؟! إن لله حكمة، أجل، أجل. أنسيت أيها الخاسر أن النبي إنما يأتي للتبليغ ويمضي. إنه جاء

بالدين. إنه يذهب ولكن الدين باق. الدين هو الإصبع الدائمة التي لا تنفك تقيم المعوج. لا تفرح إذن كثيراً بموت النبي. ما مات غير الجسد الزائل. أما المبادئ والتعاليم فهي قائمة في وجه ريحك العاتية دائماً. . . أما الرسول في الحقيقة غير الرسالة. . . والرسالة لا تموت

إبليس ـ نعم، نعم.

عزرائيل ـ ما بالك وجمت! إن على وجهك الآن لغبرة تزيده قبحاً على قبحه. . .

إبليس ـ الرسالة والدين والتعاليم. . . هذا صحيح. . . ولكن. . . تلك الأشياء لم تخفني قط. . . فقد استطعت فيما مضى أن أنزع عنها بعض قوتها. . . إن المسيح قد بشر بالمثل الأعلى وفتح قلوب الناس لنور السماء. وذهب وقد ترك في الأرض قديسين وخلفاء ساروا على سنته في نبذ متع الأرض والانقطاع مترهبين في الصوامع والبيع والصحاري ورؤوس الجبال يتأملون وجه

الله وحـده، ناسـين أو متناسـين هـذه الأرض الـتي مـن عناصرها صنعت أجسامهم. . . هنا تراءيـت لهـم ولمـن تـبعهم في صـور مختلفـة تـذكرهم بمـا نسـوه وتناسـوه، وخاطبت أجسامهم بالمنطق الذي تفهمه، وحدثت عناصر تركيبهم باللغة التي تعرفها. . . فإذا أكثر الناس يصـغون ألـي في أمـور حيـاتهم ومعاشـهم ولا يـذكرون التعـاليم والمبادئ السماوية إلا يوم يجدون في أوقاتهم فراغاً للـتفكير في السماء. إني ذكي. إني لم أرد قط في حربي ضد المسيح أن اقتلع المسيحية من النفوس، ولكني أظهرت في لباقة مـا فيها من علو شاهق لا يستطيع المخلوقون من تراب وطـين أن يبلغوه ما دامـوا آدمـيين. . . فليصـغوا إذن إلى أغـاني الجسد وأناشيد التراب والطين. . . وليطلـب العلـو مـن كان عنده فضل من فراغ ينفقه بعيداً عن الأرض والحيـاة. . . وبهذا أصبحت المسيحية الحـق اليـوم ترفـاً روحيـاً لا

يقتنيه غير خاصة الخاصة، أولئك الذين لك أستطع أن أخاطب فيهم منطق الأجساد والعناصر. . .

عزرائيل ـ لقد أدرك الله غرضك الأثيم فأرسل محمداً بدين لا ينكر منطق الأجساد والعناصر. . . دين لا يعرف الرهبنة ولا إنكار قوانين الأرض. . . دين لا يكره أن يصغي أتباعه إلى أغاني السماء والأرض معاً. . . وأن يفكروا في الآخرة والدنيا معاً. . . ما وسائل حربك ضد محمد والإسلام؟

إبليس ـ حقاً. . . تلك هي المشكلة! لهذا كان النبي ألد عدواً لي!

عزرائيل ـ إنه خاتم الأنبياء لأنه ضيق عليك الخناق، وسد كل ثغرة يمكن أن تنفذ منها سمومك. . . فماذا أنت صانع؟ . . .

إبليس ـ دعني أفكر. . .

عزرائيل ـ فكر طول الأبد. . . فلن تظفر. . .

إبليس ـ بل لقد فكرت وظفرت . . . الأمر بسيط : يجب علي أن اطمس خصائص هذا الدين . . . إني خبرت الناس لطول لصوقي بهم وعشرتي لهم . . . أن الناس يميلون دائماً إلى التشبه والتشبيه . . . هذه القرود الناطقة . . . يصعب عليها التمييز والتفريق والنظر في فلسفة الأشياء . . . غداً عندما يوارى محمد في التراب . . . ويصبح ذكراً وطيفاً كموسى والمسيح ، بل ربما قبل أن يواروه في الحفرة . . . أنظر . . . أليس هذا عمر بن الخطاب أحد خلفائه؟ أصغ إليه . . .

عزرائيل ـ إياك أن توسوس له بشيء .

إبليس ـ أصغ إليه . . .

(عمر بن الخطاب يقوم في الناس صائحاً)

عمر ـ لا أسمعن أحداً يقول : إن محمداً قد مات ؛ ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى ، فلبث عن قومه

أربعين ليلة . والله إني لأرجو أن تقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات!

عزرائيل ـ عجباً! ما هذا الذي يقول؟!

إبليس ـ أرأيت؟ قد شبهوه بموسى ولما يهيلوا عليه التراب!

عزرائيل ـ كذبت! إنما هي وسوسة منك!

إبليس ـ صه! انظر! هذا أيضاً رجل من بين الناس يريد أن يقول شيئاً . . .

(ينهض أحد الناس صائحاً)

أحد الناس ـ أن رسول الله قد رفع كما رفع عيسى، وليرجعن!

عزرائيل ـ رباه ماذا أسمع!

إبليس ـ أرأيت؟ إنهم قد شبهوه كذلك بعيسى ولما يدرجوه في الأثواب!

عزرائيل ـ لست أصدق ما أرى وما أسمع

إبليس ـ لقد قلت لك إني أعرف منك بالبشر

عزرائيل ـ اللهم نـورك! كيـف خفـي علـى هـؤلاء أن دينهم لم يكن تكريراً لما سبقه من أديان! . . . اللهم إنـك منزه عن اللغو والتكرار!

إبليس ـ ما أبهج هذا النهار؟ ألا تطربك أغنيتي:

ذهب عدوي إلى الفناء

اليوم عيدي فإلى الغناء

عزرائيل ـ آه، لو استطعت أن أبطش بك. . .

إبليس ـ اقبض روحي إن قدرت. . .

عزرائيل ـ ليس لك روح يقبض

إبليس ـ بل لي روح لا تستطيع قبضه يداك الصغيرتان!

عزرائيل ـ يداي حقاً لا تستطيعان؛ ولكـن يـد رضـيع تستطيع. . . إن روحك ليزهق في اليوم ألوف المرات. . إن روحك لينطفـئ في قلـب كـل مـؤمن ومؤمنـة ومحسـن

ومحسنة وخيّر وخيّـرة. . . إن روحـك مـارد مـن دخـان يستطيع طفل بكلمة طيبة أن يحبسه في قمقم من نحاس!

إبليس ـ ولكني لا أمـوت ولا أذهـب إلى الفنـاء. . . لأنـي سـلطان الأرض وروح الأرض. . . ولـن أتـرك الأرض ما بقيت دودة تسعى في الأرض!

عزرائيل ـ ابق ما شئت في الأرض، ولكنك لـن تقـوى على دحر أعدائك. . .

إبلـيس ـ عجبـاً لـك! أو لم تـر كيـف أنـي في لحظـة استطعت أن أغير معنى الدين الذي قضى محمد حياته كلها في تجليته وإظهاره وتوضيحه. . .؟ ألم يذكر محمد قومـه في كل وقت أنه بشر يـوحى إليـه. . . وأنـه يحيـا ويمـوت كبقية الناس. . . وأن دينه هو دين الحياة. . . الذي يحل للناس كل وسائل العيش الصالح على هذه الأرض. . . وما دام دينه دين الحياة والفطرة والمنطق البشري. . . فـلا ينبغي أن يؤلهه الناس كمـا ألهـو المسـيح، ولا أن ينكـروا

إمكان موته كما فعلوا مع المسيح . . . أليس هذا معنى دينه؟

فكيف إذن بدل الناس الآن المعنى وانقلبوا يسيرون نحو فكرة التأليه؟ . . .

عزرائيل ـ إنهم لن يغيروا شيئاً . . . ولئن وقع في نفسك شيء من كلام عمر بن الخطاب، فهو لا ريب قد قال خوفاً من الردة!

إبليس ـ ولماذا يخشى ارتداد الناس عن الدين بموت محمد . . . إنهم إذن كانوا يعبدون محمداً!

عزرائيل ـ اللهم ألقي نورك في صدور الناس!

إبليس ـ هيهات! إن ما تسميه (وسوستي) قد استقر الساعة في صدور الناس . . .

عزرائيل ـ خسأت أيها الخاسر . . . أنظر . . . أنظر . . .

إبليس ـ ماذا؟ من هذا؟

عزرائيل ـ هذا أبو بكر يقوم في الناس . . . أصغ إليه .

(أبو بكر ينهض في الناس صائحاً)

أبو بكر ـ أيها الناس . . . أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . . . ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت!

عزرائيل ـ وا فرحتاه . . . أسمعت؟

إبليس ـ؟؟؟

عزرائيل ـ أنظر أيضاً . . . أنظر . . . هذا العباس يريد أن يقول شيئاً . . .

(العباس يقوم في الناس صائحاً)

العباس ـ أيها الناس . . . والله الذي لا إله إلا هو، لقد ذاق رسول الله الموت، وإنه ليأسن كما يأسن البشر . . . فادفنوا صاحبكم . . . إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً . . . أحل الحلال وحرم الحرام . . . ونكح

obeikandl.com

وطلق وحارب وسالم . . . وما كان راعي غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله فيكم . . !

(عزرائيل يلتفت إلى إبليس صائحاً صيحة الانتصار)

عزرائيل ـ ماذا تقول الآن في هذا؟ أغرب الآن عن هذا المكان . . . لقد طهر معنى الإسلام، وتألق روح هذا الدين . . . !

obeikandl.com